القصة في أدب الأطفال عند العرب؛ أشكالها ومضامينها

The story in children's literature among the Arabs; forms and contents

الدكتورة/ براخلية ربيعة

قسم اللغة العربية وآدابها-جامعة الجزائر2(الجزائر)
brakhliarabiaa@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2023/04/01 تاريخ القبول: 2024/03/18 تاريخ النشر: 2024/09/15

ملخص:

يتناول هذا المقال أهمية قصص الأطفال في تنشئة الطفل العربي، والدور الذي يؤديه هذا اللون من أدب الطفل في عملية خلق جيل واع متصالح مع ذاته، ومن أجل هذه الغاية استهل هذا البحث موضوعه باستقراء عن أدب الطفل عموما، من خلال التطرق إلى مفهومه ثم تخصيص الحديث عن أهمية القصص في حياة الطفل، ليقدم البحث بعد ذلك أشكالا متعددة عرفتها قصة الطفل في الأدب العربي، والمضامين المتعددة التي تناولتها مركزا على أهمها.

الكلمات المفتاحية: أدب الطفل، الأشكال الفنية، التنشئة، الطفل العربي، القصص، المضامين.

Abstract:

This article deals with the children's stories in upbringing and instilling the righteous and correct education in the Arab child, also the role given by this literature to help create a conscious generation reconciled with itself. With that said, this study commenced its subject matter with a general extrapolation of the children's literature; through touching upon its definition then to single out how important are stories in child's life, as one of the most loveable types and the most able to create his own world. Afterwards, the study provides multiple forms known to child story in the Arabic literature and focusing on the most essential of the several contents covered in it, like the animal stories in which the latter is the main character, as well as comics becoming an important requirement in a world with so many contradictions and conflicts along with other forms and contents addressed in the research of this study.

Key words :children's stories; the Arab child; artistic forms; upbringing; stories, contents.

مقدمة:

تعد الطفولة مرحلة من أهم مراحل بناء الإنسان، فالأطفال هم شباب الغد ورجاله، هم الاستثمار الحقيقي باعتبارهم يشكلون وحدة من أهم وحدات المجتمع، ولأنّهم أكبادنا تمشي على الأرض، وجب الاهتمام بهم وبكل ما يساعد في تنشئتهم التنشئة الصالحة وإعدادهم للمستقبل، فهم صُنّاعه والثروة البشرية الباقية.

وأدب الطفل من أهم العناصر المساهمة في إعداده الإعداد الصحيح، من خلاله يكتسبون الخبرات التي تنمي عواطفهم وتغذي عقولهم وتقوّم سلوكهم وتزكي أذواقهم وتكسبهم المتعة والجمال، وقصص الأطفال لون رفيع من ألوا هذا الأدب فقد كانت ومازالت وسيلة من وسائل نشر الثقافات والمعارف والعلوم بسبب ما تنطوي عليه من جاذبية وتأثير في النفوس، حتى القصص التي كنا مشدودين إليها في صغرنا ظلت راسبة في أعماقنا وإلى الآن ما تزال هذه القصص التي تحكيها الجدات ونقرؤها في متون الكتب تسترعي اهتمام الطفل وتشدّه، فالأدب القصصي عمدة الأنواع النثرية للأطفال دون منازع، وهي إلى جانب ذلك أحسن وسيط تربوي فعال سواء في المنهج الدراسي أو في القراءة الحرة، ولقد فطن الأدباء العرب إلى هذه الأهمية وأولوها عنايتهم، وأدركوا أن الكتابة للأطفال ليست بالأمر اليسير كما قد يبدو للوهلة الأولى، ولقد سعينا في ورقتنا البحثية هذه إلى الإجابة على التساؤلات الآتية: ما مفهوم أدب الطفل؟ وفيما تكمن أهمية قصص الأطفال؟ وما هي أهم الأشكال القصصية التي عرفها أدب الطفل العربي؟ وما مضامينها؟، وهو ما سنحاول الإحاطة به وتسليط الضوء عليه.

أولا: مفهوم أدب الأطفال

يعد أدب الأطفال واحدا من أهم الفنون الأدبية المتجددة، تستهدف البناء المتوازن لشخصية الطفل، فهو ينشأ ليخاطب الطفولة بمختلف مراحها العمرية، باعتبارها مرحلة لها خصوصيتها وأهميتها الكبيرة في صفوف أي مجتمع، فالطفل هو جمهور هذا الأدب والمرسل إليه ولعلها أهم خصيصة تميز أدب الأطفال عن أدب الكبار، يقول محمود شاكر سعيد: «و الشيء الذي يميز أدب الأطفال هو الجمهور الذي يخاطبه الأديب »1، وإن كان هذا لا يخالف ولع الكبار أحيانا بهذا الأدب فنجدهم يقرؤونه ويتفاعلون معه، ويمتعهم كما يمتع الصغار.

ومع أنّ هذه الدراسة تنصب على أهمية أدب الطفل والأشكال القصصية المختلفة ودورها في تنشئة الطفل العربي، إلا أنّه لا بدّ من الإشارة إلى مفهوم أدب الأطفال واعتباره منطلق هذا البحث ولو تلميحا ولكن تركيزا على ما رأيناه يخدم بحثنا، ننأى في ذلك عن المفاهيم العديدة المتباينة التي وضعها الدّارسون والباحثون .

يعرّف أحمد زلط أدب الأطفال بقوله: «هو ذلك النوع الأدبي المستحدث من جنس أدب الكبار (شعره ونثره وإرثه الشفاهي والكتابي)، فهو نوع أخص من جنس أعم يتوجه لمرحلة الطفولة، بحيث يراعي المبدع المستويات اللغوية والإدراكية للطفل، تأليفا طازجا أو إعادة بالمعالجة من إرث سائر الأنواع الأدبية المقدمة له»2، فيعدّه أدبا جديدا مستحدثا في الأدب العربي وهو بهذا يتغاضى عن وجود هذا اللون الموّجه للأطفال لاسيما الشفاهي منه، حين كانت الأم تروي لأطفالها حكايات ما قبل النوم متبوعة بأنغام وكلمات جميلة تحمله على النوم، فهو وإن كان حديث النشأة ومصطلحا ذو دلالة مستحدثة إلا أنّه متعمق الجذور، كما أن أحمد زلط هنا لا يعطي تعريفا مستقلا لأدب الأطفال مكتفيا بإدراجه ضمن الأدب العام، ولعله يستدرك ذلك في تعريف آخر له، إذ يقول: «فأدب الأطفال: هو أدب المستقبل؛ لأنّه أدب مرحلة طويلة من عمر الإنسان (...) يعتمد بنيانه اللغوي على الألفاظ سهلة ميسرة فصيحة غير حوشية تتفق والقاموس اللغوي للطفل بالإضافة إلى خيال ومضمون»3، لكننا نجده هنا أيضا يقصر أدب الأطفال على جانبه اللغوي غاضا الطرف عن جوانبه العديدة التربوية والأخلاقية والتعليمية وغيرها من الجوانب التي تسهم في تنشئة الطفل تنشئة سليمة، فإعداده هو إعداد لمجتمعات المستقبل.

ويعرفه هادي نعمان الهيتي بأنه: «الآثار الفنية التي تصور أفكارا وإحساسات وأخيلة تتفق ومدارك الأطفال وتتخذ أشكال: القصة والشعر والمسرحية، والمقالة والأغنية»4، كما يعتبره أيضا الدعامة الرئيسة في تكوين وصقل شخصية الطفل من خلال إسهامه في نموه العقلي والنفسي والاجتماعي والعاطفي...وهو ما يعزز مداركهم وتوسيع نظرتهم إلى الحياة التي من شأنها أن تسهم في بنائه وتكوينه لإنتاج جيل جديد قادر على مواجهة المستقبل ومسايرته، ويعرفه عبد الفتاح شحدة أبو معال بأنّه: «الأثر الذي يثير في الأطفال لدى قراءتهم أو سماعه متعة واهتماما ويحاول أن يغير من قيمهم واتجاهاتهم ويحدث أثرا واضحا في دفع العواطف والعقول»5، فأدب الأطفال واسع المجال بجوانبه المتعددة وأبعاده المتغيرة تبعا لاعتبارات عدة كنوع الأدب والسن الموجه إليه هذا الأدب وغيرها، لا يقتصر مجاله على القصص والحكايات النثرية أو الشعرية وإنمّا يشمل كلّ المعارف الإنسانية، فهو إلى جانب هذه الاعتبارات الإبداع الجميل ضمن الأشكال الأدبية المتعارف عليها في عالم الكبار والمشتملة على مختلف المعارف الإنسانية.

ثانيا: أدب الأطفال في الكتابات العربية

لقد ارتبط أدب الأطفال في بدايته العربية ارتباطا وثيقا بالتنشئة والتربية إيمانا منهم بأن الاهتمام بالطفل وإعداده هو ضمان لمستقبل البلاد، فظهرت البوادر الأولى في عهد محمد علي في مصر الذي شجع البعثات العلمية إلى أوروبا، وشجع حركه ترجمه الآداب الأوروبية إلى العربية خاصة حينما أمر رفاعة الطهطاوي بنقل أدب الأطفال في أوروبا إلى اللغة العربية، فترجم قصه

"عقله الأصبع" و"حكايا الأطفال"، كما أشرف على إصدار أول مجله عربية تعنى بالطفل سماها "روضه المدارس"، كما أصدر كتابه المسمى "المرشد الأمين للبنات والبنين"، « ويدلنا عنوانه على التوجه التربوي المباشر من ناحية وعلى غاياته الوعظية من نصح وإرشاد من ناحية أخرى وهو في ضوء ذلك قد آمن باحتياجات الطفولة العاطفية والخيالية والترويحية فادخل قراءة القصص والحكايات في منهج الدراسة الابتدائية»6، لاسيما وأنه كان مسؤولا عن التعليم وقتها، فحمل هذا الكتاب إرهاصات أدب الطفل عند العرب، وبعده ترجم المصري "عثمان جلال" حوالي مائتي حكاية خرافية على لسان الحيوان ضمنها كتابه " العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ" ،الذي تأثر فيه بالأديب الفرنسي لافونتين، ويعد كتابه « أول محاولة عربية تقوم على الترجمة ومحاكاة أدب الغرب في نظم أبيات الأطفال»7 وعدّ رائد مرحلة الترجمة في مجال أدب الطفل، ويرى النقاد أنه نجح إلى حد كبير في «أن ينقل حكايات الحيوان الخرافية عن لافونتين وفي قدرته الفنية في المحاكاة والتعريب إلى اللغة العربية إذ ألبسها ثوب الروح المصرية واللغة العربية القريبة من الاستعمال اليومي»8، ولم يكن عثمان جلال وحده من تأثر بالأديب لافونتين فحتى أحمد شوقي أثبت في مقدمة ديوانه "الشوقيات" تأثره بأسلوب الكتابة عند لافونتين، وقد أدرج ضمنه بابا للحكايات والقصص الشعرية الخاصة بالأطفال، ميزها أسلوب التسلية والفكاهة مصحوبا بمغزى معين وهدف تربوي. وبعد شوقي صُنّف " كامل الكيلاني" كأكبر رواد أدب الأطفال عند العرب وعدّ الأب الشرعي لأدب الأطفال، نشر عدة قصص للصغار مترجمة وألّف قصصا أخرى من إبداعه استقى أحداثها من التراث العربي، فكتب " السندباد البحري"، واستطاع أن يؤسس مدرسة لأدب الأطفال وحكاياته ونشر حوالي مائتي قصة أرسى من خلالها دعائم هذه الكتابة، كما أسهم "محمد الهراوي" من خلال تأسيسه لمدرسة "سمير الأطفال للبنين " و"سمير الأطفال للبنات"في إثراء مكتبة الطفل العربي، والانتقال بأدب الطفل إلى مرحلة التأليف لمختلف أعمار الطفل العربي. وفي عام 1929 أصدر المهندس والأديب " حامد القصبي" أولى كتاباته للأطفال بعنوان " التربية بالقصص لمطالعات المدرسة والمنزل" مقتبسا فيها بعض القصص الانجليزية المترجمة ولكن بما يتواءم وأفكار الطفل العربي، ولقد أدرك القصبي أن الاهتمام بقصة الطفل لا يجب أن تقتصر على المدرسة بل هي كوسيط تربوي يسهم في تنمية الميول الأدبية والقرائية للطفل لابد أن ترافق الطفل خارج المدرسة تلامس حياته اليومية.

وفي السنوات بدء من 1979 إلى سنة 1990 عرف مسار أدب الطفل تحولا كبيرا، وارتبط الاهتمام به مع الاهتمام بخطة العمل لتطوير الطفل العربي، فاهتموا بالقصص الوطنية والأخلاقية والدينية التي عرفت كثافة في الإنتاج، واستطاع هذا الفن أن يستحوذ على أقسام خاصة به في معظم دور النشر، فصدر للأديب " محمود شقير" مجموعته القصصية " الجندي

واللعبة" التي احتوت على أربع قصص، تناول في ثلاثة منها وهي (منع التجول، الجندي واللعبة، الزيارة)، قصص تحكي المعاناة اليومية لأطفال فلسطين «الاحتلال الذي مزق لعبة عزيزة في الأولى بحجة التفتيش عن متفجرات، وحبس الأطفال في البيت بحجة الحفاظ على الأمن ومنع التجول، وحرم الطفل أباه وسجنه بحجة المساس بأمن الدولة، وهي بالطريقة السلسة التي كتبت بها والتزامها اهتمامات الطفل وحاجاته تحقق هدفا هاما وهو تعبئة الأطفال ضد الاحتلال ببساطة وتوجيههم إلى ضرورة المقاومة »9، وعلى هذا المنوال صدرت رواية "أطفال القدس القديمة" في مجلة " سامر" للقاص "مفيد نحلة"، وفي قصة أخرى على لسان الحيوان تصور المقاومة الفلسطينية قصة " العصافير" والصراع بين الأفاعي المغتصبة للأرض والعصافير التي تستميت لتدافع عن أراضيها وأعشاشها.

ولقد كان للدارين" دار الفتى العربي" في بيروت و"دائرة ثقافة الطفل" في العراق دور كبير في تشجيع الكتابة الإبداعية في مجال أدب الطفل وإصدار العديد من الأعمال الفنية وقصص الأطفال وتعاونهما مع العديد من الأقلام الأدبية في مختلف الدول العربية.

تزايد الاهتمام بالكتابة للطفل وأضحى هذا اللون يتغير ويتطور تبعا لتغيرات المجتمع، واتخذ منحى جديدا يتوافق من جهة مع الاهتمام بالطفل ومن جهة أخرى يواكب طرائق التربية، خاصة وأن الطفل في هذه المرحلة بات فاعلا ومتفاعلا في العملية التعليمية مع التقنيات الحديثة المدخلة، وأشرك دور النشر المتخصصة في إنتاج كتب الأطفال وقصصهم في مصر ولبنان والأردن وسوريا وفلسطين والإمارات العربية المتحدة وفي دول المغرب العربي، وأفردت جوائز خاصة لكتّاب أدب الطفل كجائزة سوزان مبارك، وجائزة كامل الكيلاني، وجائزة أبو ظبي للإبداع وجائزة مؤسسة الفكر العربي، إلى جانب المهرجانات التي كانت تقام هنا وهناك، كل ذلك أسهم في تطوير نوعية الكتاب الموجه للطفل وفي غزارة الإنتاج .

ثالثا: أهداف أدب الطفل

لقد عرفنا أن أدب الأطفال في بدايته كان تربويا، يستهدف تربية النشء وتنشئته التنشئة السليمة، فكل عمل ابن آدم مرتبط بتحقيق غاية معينة حددها ورسم معالمها مهما كان توجهه العقائدي وطبيعة نشأته، فكل نشاط إنساني يقابله هدف وأدب الأطفال لا يختلف في ذلك عن غيره، له غاياته التي يسعى المهتمين به لتحقيقها، وعن دور أدب الطفل يقول الحديدي في كتابه " أدب الأطفال" أنّه يأتي «ليبث الإيمان بالله والوطن والإنسانية في القلوب الغضة الرقيقة، وليدفع بالأطفال إلى خدمة الآخرين، ولينمي فيهم الوعي الجماعي وروح التعاون»10، هذه الأهداف قد تتداخل وتتقاطع لهذا حدد كثير من النقاد والمهتمين بأدب الطفل عناوين عريضة لذلك .

1- الأهداف العقائدية :

تهدف القصة وأدب الطفل عموما إلى خلق جيل مسلم واع بمحيطه ومتغيراته ومغرياته متصالح مع ذاته، من خلال النماذج القصصية التي تعرّف الطفل على تعاليم دينه وسير الأبطال والعظماء بدء بقصص الأنبياء خاصة وأن القران الكريم حفل بأجمل وأروع القصص كقصة أدم عليه السلام مع إبليس والشجرة وقصة موسى عليه السلام مع فرعون وإبراهيم الخليل مع ابنه إسماعيل وغيرها من القصص، إلى جانب سيرة الرسول صلّ الله عليه وسلم وسرد حياته وحياة الصحابة والتابعين وعرض الفتوحات الإسلامية وإنجازات العظماء ممن رفعوا راية الإسلام عاليا، لإعداد جيل موحد ولترسيخ حبّ الله تعالى في نفس الطفل وحبّ رسوله الكريم والإقتداء به في كل شؤون الحياة، وهو ما يحتاج من الأديب إلى مقدرة تمكنه من تقديم ذلك بأسلوب يتلاءم مع الطفل ومستوى قدراته.

2- الأهداف اللغوية التذوقية :

يحقق أدب الأطفال للطفل مهارات لغوية متنوعة، فهو من جهة ينمي عنده النطق الصحيح للكلمات والقراءة المعبرة التي تكسبيه مع نمو أعمارهم ومراحل قراءاتهم زادا لغويا وثروة يدركون مع الوقت معناها ويستوعبون مفرداتها، ما يولد عندهم قدرة تعبيرية وطلاقة في اللسان، للارتقاء بأساليب التعبير عن طريق استخدامهم مختلف الأساليب كالحوار وأسلوب التعجب وغيرهما، كما أن استدعاء الأفكار وتواردها يشعل وهج الخيال عندهم، من خلال تعود الأطفال على المجاز والاستعارات والتشبيهات، كما أن تنوع الكتابة في أدب الطفل يجعل هذا الأخير على معرفة ودراية بأنواع الكتب التي يقرأ فيميز بين الأجناس الأدبية بين الشعر والنثر والقصيدة والقصة والمسرحية .

3- الأهداف التعليمية والمعرفية:

يعد التعلم والمعرفة والتعرف على العالم المحيط من أهم الأهداف التي يسعى أدب الأطفال إلى الإحاطة بها، فالرغبة في المعرفة تصاحب الإنسان منذ أسابيعه الأولى وتزداد مع تقدمه في العمر «وقد أثبتت الأبحاث أن الطفل كثيرا ما يضيق بالمعرفة المفروضة عليه في المدرسة لكنه يقبل على المعرفة التي يكتسبها بطريقة غير مباشرة لأن مثل هذه المعرفة يسودها روح اللعب السار الحر والقصة والمسرحية والأغنية تقدم له كثيرا من المعلومات التي يستعملها دون جهد وبرغبة أكيدة»11 ، كما يعزز أدب الأطفال (كقصص البطولة والألغاز)اكتساب الهوايات والمهارات الجديدة التي تعينه على فهم معنى الحياة ومحاولة التكيف معها وتمنحه القدرة على التمييز بين الحسن والقبيح والقدرة على التفكير وربط الأمور ببعضها وسرعة البديهة والاستنتاج، مما يجعله متمكنا وقادرا على محاورة الغير والاستشهاد بالنصوص في المواقف المختلفة، وحل المشاكل بطريقة فريدة.

4- الأهداف الخلقية والاجتماعية:

يشكل اكتساب القيم الأخلاقية واحدا من أهم الأهداف المسطرة لدور القصة في أدب الطفل، فمن خلال تنمية إعجاب الطفل بالمواقف الأخلاقية والخصال الطيبة والمثل التي تنادي بها القصص الموجهة له وجعلها قدوة يحتذي بها من شأنها أن تكون له حصنا منيعا يجنبه الوقوع في الخطأ والانحراف ويباعد بينه وبين الصفات المذمومة ، ويمكن تلخيص هذه الأهداف على النحو التالي12:

- تشكيل ثقافة الطفل التي تتوافق مع العصر وتتناسب مع متطلبات المستقبل وآماله .
- انتقاء الإيجابي والمفيد من الثقافات الأخرى لدعم القيم وإثراء ثقافة المجتمع.
- اختيار ما يتناسب مع عقلية الطفل العربي ويتوافق مع آمال مجتمعه.
- الوصول إلى بناء شخصية متكاملة ومتوازنة للطفل.
- تنمية الوعي الأخلاقي والاجتماعي عند الطفل، لإعداد فرد اجتماعي مثابر، متعاون ومخلص.

5- الأهداف الوجدانية:

إن بناء الطفل بناء وجدانيا سليما لا يقع على عاتق الأسرة فحسب، بل هي عملية تكاملية يشترك فيها الكل، الأسرة والمدرسة والمجتمع ومراكز الطفولة المتخصصة وغيرها، والأدباء ليسوا في معزل من ذلك، إذ يقع على كتّاب أدب الطفل عبء إعداد فرد سوي متزن، لاسيما حين يتعلق الأمر بـ:

- القضاء على الخجل وتعويد الطفل على مواجهة المواقف المختلفة وتحمل مسؤوليته تجاه أفعاله.
- تنمية الإحساس بالأمن والاستقرار في نفس الطفل ليعزز لديه شعور الثقة بالنفس، لتتحرر قدراتهم وتنطلق مواهبهم.
- شحذ عواطف الصغار وتحبيب القراءة والتعلم والمعرفة عندهم.

6- الأهداف الترفيهية:

يأتي أدب الطفل بكل أجناسه ليحقق غاية ترفيهية، ونعني بذلك«أن الأدب المناسب للطفل يرفه عنه، ويمتعه ويساعده على قضاء وقته في شيء نافع له ومفيد، فالأديب إذا ما عرف عمر الطفل الذي يكتب له، وخصائص مرحلته النمائية، وحاجاتها النفسية سوف يعرف أي لون من ألوان الأدب يمكن أن يقدم للطفل وأي موضوعات وأفكار»13، فالطفل مع حبّه للعلم وشغفه بالمعرفة لا يفرط في رغبته الدائمة في البحث عن المرح والترفيه والتقليد، فنجده في مواضع يقلد

أصوات الحيوانات وفي أخرى حركاتها وطريقة الصيد لديها، وقد يمثل بعض الأدوار في القصة أو المسرح أو الغناء، فلا تتعارض الأفكار الجيدة مع طريقة تقديمها من خلال لعبة.

ومن الأهداف التي تسعى إليها الكتابة في أدب الطفل كما ذكرها "محمود حسن إسماعيل" نقلا عن الدكتور "سعد ظلام "، قوله14:

- غرس العقيدة والقيم الدينية وتكوين الضمير وتعرفه على أبجديات الإسلام وتحبيبه إليه.
- اعتزاز الطفل بأمته ووطنه، وتنمية العلاقات الاجتماعية والوشائج وإمداده بمعلومات صالحة عن وطنه ومجتمعه الكبير.
- التركيز على الاتجاهات السلوكية الحسنة، وتنمية الطفل ثقافيا وخياليا وابتكاريا.
- إثراء الطفل لغويا، ويكون ذلك بتزويده بمفردات وتراكيب وعبارات لغوية قريبة من عالمه ليتعود على لغته وأنماط التفكير من خلالها، ويتعرف على أنماط الجمال فيها فيتكون ذوقه اللغوي وحسه الفني.
- مساعدة الطفل على الفهم والدقة في التفكير وتنمية قدراته ومواهبه في الإبداع والنقد.
- إشباع ميول الطفل الغريزية في الشعور بالأمن والثقة والتفاؤل والميل إلى المغامرة.
- تحبيب الطفل في البطولات العربية من خلال التجانس بينه وبينها، وبين اللغة الشعرية التي قالها الأبطال، والمواقف التي أثيرت عنهم ومده بزاد طيب من أمثلة الشجاعة وحسن التصرف وتشجيعه على أن يكون مثل هؤلاء الأبطال .

رابعا: أهمية القصة للطفل:

ممّا لا يختلف فيه اثنان أن قصص الأطفال لا تختلف عن قصص الكبار، من حيث اشتراكهما في الأسس البنائية والشكلية إلا أنّهما يختلفان من ناحيتين، من ناحية طبيعة الأحداث ومن ناحية طبيعة الشخصيات، إذ ترتبطان ارتباطا وثيقا بطبيعة المرسل إليه والخصائص المميزة له .

وهي من أحبّ الألوان الفنية للطفل لما تتميز به من متعة وتشويق مصحوبة بالسهولة والبساطة، فيقبلون عليها شغوفين معجبين بها، «ويعتبر بعض علماء النفس مرد إعجاب الأطفال بالقصص والحكايات إلى أنها لون من ألوان اللعب الإيهامي الذي يحتاج إليه الأطفال احتياجا شديدا، نظرا لتشبع الأطفال بعنصر الخيال وقدرتهم على التجسيد ويرى عدد آخر من علماء النفس أن القصة إضافة إلى كونها لونا من اللعب الإيهامي، فهي تشبه الحلم بالنسبة إلى الأطفال الصغار، ففي القصة مجال لهم لإعادة الاتزان إلى حياتهم حيث يجدون في كل قصة شخصيات تشبه من بعيد أو قريب الشخصيات التي يقابلونها في حياتهم، والتي يتعاملون معها »15، وأهمية

القصة للطفل تتجسد من خلال الأدوار التي تؤديها والتي تسهم في بناء شخصية الطفل، فهي له المصدر المهم لتعليم القيم الاجتماعية على أنواعها كآداب المائدة والمناسبات العائلية والقيم الخُلقية التي تغرس في الطفل حسن المعاملة والمحبة والروح الوطنية وغيرها من القيم التي بها تتشكل شخصية الطفل، كما تتيح القصص للأطفال أن يطوفوا على أجنحة الحلم والخيال دروب العوالم عبر الأزمنة والعصور سواء الغابرة أو المستقبلية، فيقفون معها على أحداث قد وقعت وأخرى لم تقع، ويلتقون بأبطال شخصياتهم وبأشخاص يشبهونهم، وبأنفسهم في المستقبل، فالقصص بوابة مشرعة على عوالم الخيال المحبب للطفل، بها تنمو خيالاتهم وينمو معه ذوقه الفني، فيّولد لديه حبّ القراءة التي تعزز بدورها رصيده وثروته اللغوية والثقافية والعلمية والتاريخية وغيرها من المكتسبات عبر مراحله العمرية، لذا فإن الأدباء اعتنوا بالقصة واستخدموها في مجال التربية والتعليم .

خامسا: أشكال القصة ومضامينها

يعد أدب الطفل عملا إبداعيا هادفا يحتاج إلى تمرس وموهبة، ويختلف هذا العمل الإبداعي ويتنوع من شعر وقصة ومسرح ومقالة و...، والقصة واحدة من أهم الأشكال الفنية المحببة للطفل، هذا الفن ينقسم ويتنوع بدوره إلى أنواع عديدة، فيمكن تقسيمه إلى قصص تاريخية وأخرى علمية وقصص فكاهية، وأخرى تجري أحداثها على لسان الحيوان وغيرها، سنسلط من خلال هذه الدراسة الضوء على أهمها .

1- القصة على لسان الحيوان في أدب الطفل

تعد قصص الحيوان وهي القصص التي تجري أحداثها على لسان الحيوان فيكون هو الشخصية الرئيسة فيها من أهم المصادر التي تمد أدب الأطفال بالحكايات الممتعة التي استحوذت على اهتمام الصغار، فقد ولعوا بها منذ فجر التاريخ، ووجدوا في تقمص الحيوانات لأدوار البشر متعتهم، فهي وإن احتفظت بخصائصها الحيوانية إلا أنها تتكلم لغة البشر تحمل طباعهم وتتصرف على نحو ما يفعلون، ولقد كان من الطبيعي إلى جانب ولع الصغار بهذا اللون أن يلقى الحيوان في أدب الكبار هذا الاهتمام وهو الذي استأنسه الإنسان منذ القدم ولعب دورا مهما في تفاصيل حياته، فدخلت الحيوانات خيالات الإنسان وحكاياته فظهر في الأساطير الدينية والأساطير المصرية وفي ألف ليلة وليلة وفي كليلة ودمنة التي ترجمها ابن المقفع، فوجدت هذه القصص في كل بيئة وعند كل أمة وبين مختلف الأجيال«وقصص الحيوان، يمكن أن تتناول موضوعات متعددة، منها ما هي قصص علمية، أو قصص مغامرات وخوارق، أو قصص فكاهية أو أخلاقية أو إنسانية، وقد استغلت مجلات الأطفال التجارية هذا اللون من القصص، فجعلت من بعض الحيوانات أبطالا لقصصها ومسلسلاتها كما هو الحال في مجالات ميكي ماوس التي تصدر

بلغات عديدة في أنحاء العالم، وتمثل لونا من ألوان الغزو الفكري لعقول الأطفال »16، خاصة مع الإقبال الكبير للأطفال على هذا النوع من القصص.

وقد أدرج الباحث هادي نعمان الهيتي في كتابه" أدب الأطفال فلسفته، فنونه، وسائطه " عدة تجارب أجراها سنة 1964 عن مدى تقبل الأطفال للقصص، يقول عن ذلك: «قدمت لثلاثة وثلاثين طفلا تتراوح أعمارهم بين (7-9) سنوات في ثلاثة أيام متتالية ثلاث قصص القصة الأولى هي من قصص الحيوان، والثانية قصة تاريخية والثالثة قصة فكاهية. ورغم أن القصتين الأخيرتين كانتا على جانب من الجمال إلا أنني وجدت:

1- أن 38 طفلا فهموا قصة الحيوان فهما جيدا.

2-أن 29 طفلا فهموا القصة التاريخية جيدا.

3-أن 21 طفلا فهموا القصة الفكاهية جيدا »17.

ولقد لاحظ الهيتي أن الأطفال كانوا أكثر اهتماما وانتباها في القصة الأولى، وطالبوه بإعادة القصة أكثر من مرة بينما لم يطالب بإعادة القصة الثانية والثالثة إلا عدد قليل منهم، ويضيف الهيتي قائلا: « بعد مرور أسبوعين، استدرجت الأطفال لمعرفة مدى ما تعلق في أذهانهم من هذه القصص، فوجدت أن أغلبهم يتذكرون القصة الأولى ويسمونها قصة "العصفور" فقد ظل الحيوان (الطير) في أذهانهم أما القصتان الأخريان فلم يتذكرها إلا عدد ضئيل جدا منهم، والطريف أن أكثرهم كانوا يتذكرون القصة الأخيرة على أنها مضحكة، ولكنهم لا يتذكرون وقائعها»18، فما علق في أذهانهم واستقر في نفوسهم هي قصص الحيوان دون غيرها لما لها من تأثير عميق على الصغار .

ولقد شهد هذا الفن في أدبنا العربي ذروته على يد أمير الشعراء احمد شوقي الذي حاكى في ذلك الشاعر الفرنسي "لافونتين" وحكاياته التي نظمها على لسان الحيوان واقتبس بعضا منها من كتاب كليلة ودمنة المترجم إلى الفرنسية، وكتب "كامل الكيلاني" رائد أدب الأطفال العديد من القصص الموجهة للأطفال والتي ترجمت إلى عدة لغات، فكتب على لسان الحيوان قصصه " العنكب الحزين" و"أسرة السناجب" وغيرهما، وكتب الفلسطني " عبد الرحمن عباد" قصة " ذاكرة العصافير"، وكتب الليبي "يوسف الشريف" قصة "العصفور والشجرة"، وألف التونسي "محمد العروسي" "السمكة المغرورة"، أمّا من الأقلام الجزائرية التي كتبت قصصها على لسان الحيوان فنذكر الكاتب عز الدين جلاوجي، فكتب ضمن السلسلة الذهبية التي نشرها قصة " الحمامة الذهبية" ذات الرأس الذهبي والجناحان الخضراوان، التي دافعت عن عشها باستماتة بعد أن استولى عليه القرد الأبيض وصديقه الخنزير.

وقصص الحيوان تهدف في الغالب إلى أن توصل للطفل معاني أخلاقية أو تعليمية أو تنقل له حكمة أو مغزى معينا،باعتبارها من أكثر الأنواع الأدبية التي تعلم الحكمة بطريقة عملية سهلة الفهم والاستيعاب ولهذا يرى الباحثون «أن قصص الحيوان يجب أن تكون في المنهج الدراسي للأطفال، لأنها تزود التلميذ برصيد من المعرفة يساعده على فهم كثير من الاصطلاحات والتوريات والرمزيات المستعملة في الحياة »19، فتصدرت السلاحف والأرانب والذئب في ثياب الحمل ومكر الثعالب وضحاياهم من الضعفاء والسذج، والأسد الذي يجسد أخلاق الملوك، والحمار الذي يصور الغباء مع العناد، وسذاجة الأغنام إلى غير ذلك من دلالات قصص الحيوان.

2- قصص الخيال التاريخي في أدب الطفل

لقد امتزج تاريخنا العربي عموما منذ فجر التاريخ بالحقائق والأوهام بالنظر إلى الفئة المدونة له، فقد يكتب من قبل أفراد متأثرين بمؤثرات طائفية أو عنصرية أو قبلية وبعضهم بتعصب مذهبي، وبعض التاريخ كتب تحت جبروت المستبدين وهكذا، وهو ما دعا وكتّاب القصة إلى ضرورة استحداث مصطلح أخر يحل محل " القصة التاريخية" ، فظهر بذلك شكل آخر من قصص التاريخ، وهي الخيال التاريخي الذي انتشر في السنوات الأخيرة فيخضع القاص أحداث قصصه التاريخية لمنظوره الخيالي وتصاغ أحداثها تبعا لذلك، فيضفي لمسات خيالية على الوقائع الماضية والشخصيات ، ومن هذا المنطلق فإن هذا النوع من القصص لا يستهدف نقل الحقائق إلى الأطفال بل « تهدف إلى مساعدتهم على تخيل الماضي والإحساس بأحزان وأفرح الأجيال التي سبقتهم، إضافة إلى تخيل الإحساس بأوجه الصراع بين البشر حيث تتهيأ للطفل –من خلالها- فرص الخوض في غمار المشاركة في حياة الماضي والشعور باستمرارية الحياة مع رؤية أنفسهم في موقعهم الحاضر في مسيرة الزمن »20، فأن تنقل قصة من قصص الخيال التاريخي للأطفال معاناة بني جنسه من الظلم والاستعباد هو حافز له ليتعلم هذا الطفل نبذ الظلم والدفاع عن المظلومين، وقد تزكي قصة أخرى إحساسه بالدفء العائلي والمحبة وهكذا، وإن كانت هذه القيم لا تختص بها فقط قصص الخيال التاريخي ولكن قصص التاريخ الموجهة للطفل عامة، وهو ما عبر عنه هادي نعمان الهيتي بقوله: «يمكن للأطفال من خلال التاريخ أن أن يميزوا بين القيم والمفاهيم المتناقضة، كان يفهموا أن الصراع ضد الطبيعة من أجل الخير العام قيمة أساسية في حياة الإنسان، وصراع الجماعة ضد الطامعين قيمة أساسية، ولكن صراع الجماعة من أجل السيطرة على غيرها ومن أجل حرمانها من حقوقها أو صراع الإنسان من أجل أغراض أنانية هي أغراض سيئة ومن خلال ذلك يتبينون معاني الخير والشر في الحياة الإنسانية»21، فقصص التاريخ لا تشبع فضول الطفل فقط ولكنها أيضا تنمي تفكيرهم وتوسع مداركهم.

وإذا جئنا إلى قصص الخيال التاريخي في الجزائر فإننا نجد الحظ الأوفر من القصص التاريخية يرتبط بأحداث الثورة الجزائرية الخالدة للتعريف بأبطالها وحث الصغار على تتبع سيرهم والتشبه بهم وبأعمالهم البطولية، على نحو ما كتب القاص "رابح خدوسي" قصته " فاطمة انسومر" المرأة المجاهدة ، والبطلة المغوارة التي حاربت المستعمر الفرنسي فاتخذت من جبال جرجرة الشهيقة حصنها الحصين، وانطلاقتها الثورية، قدمها خدوسي بأسلوب شيق ساحر، حملت بإيجابية للطفل الجزائري القارئ حبّ الوطن والتضحية من أجله وقيم البطولة والشجاعة إلى جانب الاعتزاز بطبيعة الوطن الخلابة، وهو ما يسهم في بناء شخصية الطفل الجزائري الذي يرى نفسه من خلال بطلته التي جابهت بشجاعتها أعتى قوة.

3- القصص العلمية والخيال العلمي في أدب الطفل

هي نوع من القص التي تتابع مسيرة الكشف والاختراعات، فتدور حول حدث علمي أو اختراع من الاختراعات في ظل عصر العلم والتقدم الصناعي والتكنولوجي لإثارة اهتمام الأطفال العلمي ومنحهم هذه الثقافة العلمية بأسلوب شيق، فلقصة الخيال العلمي قدرة فعالة على توسيع آفاق خيال الصغار وتدريبهم على استخدام هذه المخيلة، فكلما تجاوب معها كلما اتسعت مداركه وتعود عقله على التفكير والاستنباط والتأويل، ولذلك عدّت هذه القصص من أنسب الأنواع الأدبية لتعليم الطفل وتثقيفه.

ولأن هذا النوع يرتبط بالإمكانات العلمية والتغيرات التي تحصل في المجتمعات تبعا لذلك، وهو الأمر الذي جعلها تبدو قليلة في أدب الأطفال العرب، فضعف الثقافة العلمية التي يقتضيها هذا النوع من الإبداع بين أدبائنا ضيقت دائرة هذا اللون .

أما قصص الخيال العلمي فهي «قصص تجمع مزيجا رائعا من الخيال والأدب والعلم في إطار قصصي مشوق جذاب، في الوقت الذي اعتقد الكثيرون فيه أن هناك ثمة تعارض بين العلم والأدب لأن أحدهما يقوم على الخيال، بينما الآخر لا يقوم إلا على أساس التجربة واستقراء الواقع، ولكن قصص الخيال العلمي وقفت بين هذين النشاطين للذين لا غنى للإنسان عن أحدهما»22.

ومن رواده المغربي عبد السلام البقالي الذي اشتهر بقصة "الطوفان الأزرق" التي صدرت عام 1997، والتي تضمنت أحداثها مشكلة ثقب الأوزون والتغير البيئ المصاحب لها، ومن الجزائر تقابلنا قصة " طارق ولصوص الآثار" المنشورة ضمن سلسلة جلاوجي الذهبية والتي تدور أحداثها حول اختراع بطلي القصة بمساعدة عباس بن فرناس لمركبة فضائية، فيطيرون بها نحو ربوع العالم، ليقترح عليهما الجد عباس بن فرناس رحلة للكشف عن كنوز صحرائنا الشاسعة، إلى جانب قصة " البحيرة العظمى" لأحمد منور .

4- القصص الفكاهية في أدب الطفل

قد يكون عصرنا اليوم من أعقد ما مرّ على الإنسان من عصور، في ظل ما يواجهونه من ضغوط في جوانب شتى من الحياة، عصر مليء بالمتناقضات والضغوطات الاجتماعية والاقتصادية...، خانق للفرد ، فما أحوجنا هذه الأيام إلى القصة المرحة الضاحكة، لاسيما إذا تعلق الأمر بأطفالنا الذين ينجذبون إليها بشكل لافت للنظر ، وتدخل ضمن هذا النوع كلّ أنواع الحكايات الهزلية والطرائف التي غالبا ما تستمد مضمونها من الحكايات الشعبية التي تداولتها الشعوب، وكذا من الحياة اليومية والمفارقات التي يعيشها الإنسان في هذه الحياة ، وتتميز القصص الهزلية «بأنّها تضخم العيوب لإثارة الضحك، وتتضمن التكرار كعنصر هام من عناصرها وهي على سذاجة موضوعاتها تضم أحيانا مواعظ خلقية يمكن تطبيقها في المواقف الحياتية وقيمتها تتركز في إمتاع الأطفال والترويح عن النفس فالمواقف المضحكة التي تتضمنها تبهج القلب، وتنفس عن الضغوط التي تفرضها عليهم الحياة الاجتماعية في الروضة أو في البيت أو في المدرسة، ولا شك أن الترويح يعيد للنفس طمأنينتها، ويهدأ من جنوح الخيال، فيرى الطفل أو الإنسان الحقائق في حجمها الطبيعي دون مبالغة أو استخفاف بها»23، كما يمكن أن تحقق القصة أهدافا خاصة كتحبيب القراءة للأطفال مما يساعدهم على تنمية الميول الأدبية وتنشيط العقول، كما تعد مجالا واسعا لنقد العادات السيئة والسلبية الضارة بالمجتمعات بأسلوب فكاهي ولكن بعيد عن الهزل العابر، ومن الملاحظ في قصص الفكاهة العربية ارتباطها بشخصية "جحا" الشخصية الشهيرة التي يعرفها كل عربي من المحيط إلى الخليج، لما اشتهرت به نوادره' فيها إلى جوانب الترفيه والتسلية العظة والحكمة والمغزى الهادف، وممّا كتب عن نوادره في الجزائر قصة " طرائف ونوادر جحا" للقاص " الأخضر زنتوت" وسلسلة "حكايات جحا" لأمل يحياوي .

خاتمة:

وما يمكن قوله من خلال ما تم التطرق إليه، أن الاهتمام بأدب الطفل إنّما هو جزء من الاهتمام بالطفل وبتنشئته تنشئة سليمة، ولقد أدركت الشعوب العربية وتنبهت إلى أهمية هذا الأمر، كما أدركوا الأدوار الايجابية لفن القصص بمختلف أشكالها في تلبية حاجات الأطفال المتعددة، كحاجتهم إلى الأمان وحاجتهم إلى إثبات قدراتهم وكذا التغيير والتحرر، وحاجتهم إلى المعرفة وحبّ الاستطلاع، ولكنّ هذه الايجابيات التي تطرحها قصص الأطفال على كثرتها وتميزها وتنوعها تقتضي منّا أن ننوه إلى أمر جلل مفاده أن كثيرا من القصص الموجهة للأطفال تحمل في طياتها قيما هدّامة تشكل خطرا جسيما على أطفالنا، تهدد شخصياتهم ووعيهم وتكوينهم العاطفي تجاه معتقداتهم الدينية ومبادئ وطرق عيش مجتمعاتهم لاسيما إن كانت تلك القصص تنتهك

حرمة الدين وتستهين بالتقاليد والأعراف التي توارثوها ، فوجب معها أخذ الحيطة والحذر والحرص على مراقبة ما يقرأ أبناؤنا خاصة في مراحلهم العمرية الأولى.

الهوامش والإحالات:

1-محمود شاكر سعيد، أساسيات أدب الأطفال، دار المعراج، ط1، 1993، ص: 11.

2-أحمد زلط، أدب الطفولة بين كامل الكيلاني ومحمد الهراوي، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1994، ص: 30.

3- أحمد زلط: أدب الأطفال بين أحمد شوقي، وعثمان جلال، دار النشر للجامعات المصري، ط1، 1994، ص: 15.

4- هادي نعمان الهيتي، أدب الأطفال فلسفته فنونه وسائطه، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالاشتراك مع دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد، 1977، ص: 71.

5- عبد الفتاح شحدة أبو معال، أدب الأطفال وثقافة الطفل، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، القاهرة، 2008، ص: 25.

6 - أحمد زلط، أدب الطفل العربي(دراسة معاصرة في التأصيل والتحليل)، دار هبة النيل للنشر والتوزيع، ط1، 1998، ص: 70.

7 - نفسه، ص: 71.

8 - نفسه، ص: 72.

9 - نجلاء نصير بشور، أدب الأطفال العرب، سلسلة أوراق عربية 31، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص: 18.

10 - علي الحديدي، في أدب الأطفال، مكتبة الأنجلو المصرية، ط4، 1988، ص: 58.

11 - محمد السيد حلاوة، الأدب القصصي للطفل (مضمون إجتماعي نفسي)، مؤسسة حورس الدولية، 2000، ص: 25.

12 - ينظر: أحمد عبده عوض، أدب الطفل العربي، الشامي للنشر والتوزيع، 2000، ص: 74.

13 - محمود حسن اسماعيل، المرجع في أدب الأطفال، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 1، 2004، ص: 61.

14 - نفسه: ص: 63.

15–نفسه، ص: 119.

16- هادي نعمان الهيتي: أدب الأطفال فلسفته، فنونه، وسائطه، ص: 152.

17- نفسه، ص: 149.

18- نفسه، ص: 149.

19- علي الحديدي، في أدب الأطفال، ص: 173.

20-سمير عبد الوهاب أحمد، أدب الأطفال (قراءة نظرية ونماذج تطبيقية)، دار المسيرة، الأردن، ط1، 2006، ص ص: 141-142.

21- هادي نعمان الهيتي: أدب الأطفال فلسفته، فنونه، وسائطه، ص: 176.

22- سمير عبد الوهاب أحمد، أدب الأطفال (قراءة نظرية ونماذج تطبيقية)، ص: 137.

23- نفسه، ص: 143.

قائمة المصادروالمراجع:

1. أحمد زلط: أدب الأطفال بين أحمد شوقي، وعثمان جلال، دار النشر للجامعات المصري، ط1994،1
2. أحمد زلط، أدب الطفل العربي(دراسة معاصرة في التأصيل والتحليل)، دار هبة النيل للنشر والتوزيع، ط1، 1998.
3. أحمد زلط، أدب الطفولة بين كامل الكيلاني ومحمد الهراوي، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1994
4. أحمد عبده عوض، أدب الطفل العربي، الشامي للنشر والتوزيع، 2000.
5. سمير عبد الوهاب أحمد، أدب الأطفال (قراءة نظرية ونماذج تطبيقية)، دار المسيرة، الأردن، ط1، 2006.
6. عبد الفتاح شحدة أبو معال، أدب الأطفال وثقافة الطفل ، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، القاهرة، 2008
7. علي الحديدي، في أدب الأطفال، مكتبة الأنجلو المصرية، ط4، 1988
8. محمد السيد حلاوة، الأدب القصصي للطفل (مضمون إجتماعي نفسي)، مؤسسة حورس الدولية، 2000.
9. محمود حسن إسماعيل، المرجع في أدب الأطفال، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 2004. محمود
10. محمود شاكر سعيد، أساسيات أدب الأطفال، دار المعراج، ط1، 1993
11. نجلاء نصير بشور، أدب الأطفال العرب، سلسلة أوراق عربية 31، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
12. هادي نعمان الهيتي، أدب الأطفال فلسفته فنونه وسائطه، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالاشتراك مع دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد، 1977.